

## الإنسان بين المقدس والديني\*

روجي كايوا

### علاقات عامة بين المقدس والديني:

يتضمن كل تصور ديني للعالم تمييزاً بين المقدس والديني، يضع في مقابل العالم حيث يتفرغ المؤمن بحرية لانشغالاته، مزاولاً نشاطاً بلا أثر يُذكر على خلاصه، مجالاً تتناوب فيه الخشية والأمل على شلّه، كما لو كان على حافة هاوية، إذ يمكن لأبسط انحراف في أقل حركة أن يؤدي لا محالة إلى ضياعه. الأكد أن مثل هذا التمييز لا يكفي دوماً لتحديد الظاهرة الدينية؛ لكنه على الأقل يزودنا بمحك يسمح بالتعرف عليها باطمئنان أكبر. والحق أنه مهما كان التعريف المقترح للدين، فمن اللافت شموله لهذا التقابل بين المقدس والديني، إن لم يتطابق معه بشكل تام. يتعين على كل واحد منا أن يُسَلِّمَ، ضمن آجال قد تكون طويلة، وعبر وساطات منطقية أو إثباتات مباشرة، بأن المتدين هو أولاً وقبل كل شيء ذلك الإنسان الذي يعتقد بوجود وسطين متكاملين: يمكن أن يتصرف في أحدهما بلا قلق أو ارتجاف، بحيث أن عمله هذا لا يستثمر إلا الجانب السطحي من شخصه، والآخر حيث شعور بالتبعية الحميمة يمنع، يحتوي، ويوجّه مجموع اندفاعاته، فيجد نفسه مُحاطاً بصعوبات لا حصر لها. هذان العالمان، المقدس والديني، لا يتحددان بدقة إلا من خلال بعضهما البعض. إنهما يتنافيان ويفترض أحدهما الآخر.

Roger Caillois: L'homme et le sacré. Édition Gallimard, 1950, pages

21-40.

\*- ترجمة: حسن العمراني.

ومن العبث محاولة اختزال تعارضهما وردّه إلى أي شيء آخر، فهو يظهر حقا كمعطى مباشر للوعي، بوسعنا وصفه، وتفكيك عناصره، وصياغة نظريته. إلا أنه ليس في مقدور اللغة المجردة تحديد ميزته الخاصة، تماما مثلما يتعذر عليها إبراز الميزة التي تتعلق بإحساس معين. على هذا النحو يظهر المقدس كمقولة تدرج ضمن الحساسية. ولا شك أن هذه هي المقولة التي يستند إليها الموقف الديني، وهي التي تمنحه طابعه المخصوص، وتفرض على المؤمن شعورا خاصا بالاحترام، يُعطي لإيمانه مناعة ضد روح الفحص والتمحيص، يجعله في منأى عن النقاش، ويضعه خارج العقل وفيما وراءه. « إنها الفكرة الأم في الدين، كما كتب هوبيرت (H.Hubert)، فالأساطير والمعتقدات تنهض بتحليل مضامينها، وتستخدم الطقوس خاصياتها، وتشتق منها الأخلاق، ويُجسدها الكهنوت، وترسخها المعابد والآثار الدينية غارسة جذورها في الأرض. إن الدين هو إدارة وتدبير للمقدس». لن نعثر على تحديد أكثر قوة من هذا لبيان كيف تنعش تجربة المقدس مجموع تجليات الحياة الدينية المختلفة، التي تظهر كحاصل لعلاقات الإنسان بالمقدس، فالاعتقادات تقوم بعرضها وتوفير الضمان لها، أما الطقوس فهي بمثابة الوسائل التي تُؤمّنُ عمليا.

### خصائص أساسية للمقدس:

ينتمي المقدس بوصفه خاصية ثابتة أو عابرة إلى بعض الأشياء ( أدوات العبادة)، وبعض الكائنات (الملك، الكاهن)، وبعض الأمكنة (المعبد، الكنيسة، الديار المقدسة)، وبعض الأزمنة ( يوم الأحد، عيد الفحص، أعياد الميلاد، الخ...). ما من شيء إلا ويكون بوسعنا أن يصير مأوى له، فيكتسب في أعين الكل، أفرادا أو مجموعات، حظوة لا نظير لها. وبالمثل ليس ثمة من شيء يمكن أن لا يجد نفسه مُجَرِّداً منه. إنه خاصية لا تتوفر عليها الأشياء من ذاتها؛ بل نعمة غريبة تُضاف إليها. «إن العصفور الذي يطير، كما شرح ذلك أحد هنود «داكوتا»<sup>1</sup> (Dakota) لـ "ميس فليشر"

(Miss Fletcher)، يتوقف لبناء عشه. والإنسان الذي يسير يتوقف حيث يشاء. كذلك الشأن بالنسبة للألوهية: فالشمس مكان توقفت فيه، تماما مثلما استقرت في الأشجار والحيوانات. لذا فنحن نُصَلِّي لها لأننا نبلغ الموضع الذي توقف فيه المقدس لنحصل منه، على هذا النحو، على الرعاية والمباركة».

إن الكائن أو الموضوع المقدس قد لا يتغير البتة في مظهره، وقد لا يتحول بصورة جذرية. انطلاقا من هذه اللحظة، تتعرض طريقة تصرفنا معه لتحول موازٍ؛ إذ يغدو من المتعذر التعامل معه بكيفية حرة. فهو يُؤلِّدُ في النفس مشاعر الرهبة والإجلال، ويقدم نفسه بوصفه «ممنوعا». وعليه يصير الاقتراب منه محفوقا بالمخاطر، بحيث يصيب كل متهور عقاب آلي ومباشر تماما كما تحرق النار اليد التي تلمسها: فالمقدس يكاد يكون دوما هو «هذا الذي يحمل معه الموت المحتوم لكل من يقترب منه».

كذلك يتعين على الديوي، الذي من مصلحته الخاصة، الاحتراز من إلفة مُهْلِكَة لا تقل خطورة عن عدوى المقدس الناتجة عن سرعته ومفاعيله. ذلك أن القوة المخبوءة في الإنسان أو الشيء المقدس توجد باستمرار في حالة تأهب للانتشار في الخارج، والانفلات كسائل من السوائل، والانطلاق في تفريغ الشحنات كتيار كهربائي. أليس من اللازم كذلك صيانة المقدس من أي ضرر صادر عن الديوي. إذ يمس هذا الضرر كيانه، ويفقده خصائصه المميزة له، فيُفرِّغه على التو من الفضيلة القوية والعبارة التي كانت في حوزته. لذا يتم الحرص بقوة على جعل المكان المقدس بمنأى عن أي شيء ينتمي إلى العالم الديوي. وحده الكاهن يقتحم قُدس الأقداس. في أستراليا، لا يعرف المكان الذي توضع فيه الأشياء المقدسة أو churingas من قبل الجميع، فغير المتدينين ممن ليست لهم دراية بأسرار العبادة، التي تعد هذه الأشياء أدواتها الأساسية، يبقون أبد الدهر جاهلين بالموضع الدقيق الذي تُخبأ فيه. فهم لا يعرفون مكانها إلا على وجه التقريب. إذ يلفون أنفسهم، متى

دنوا منها ، مجبرين على القيام بدورة كبيرة تلافياً لإمكان اكتشافها بمحض الصدفة. وعند قبائل « الماوري»<sup>2</sup> (Maoris) يؤدي دخول المرأة إلى ورشة مخصصة لبناء زورق مقدس إلى إبطال كل المزايا المزمع إسنادها له : فيتقرر عدم إبحاره؛ لأن حضور كائن دينوي يعتبر كافياً لإبعاد البركة الإلهية عنه. إن مرور المرأة من مكان مقدس يقضي على قداسته.

لامراء أن الديني، مقارنة بالمقدس، لا يصطبغ إلا بالصفات السلبية، ويبدو قياساً إليه مُعوزاً ومفتقراً للوجود، تماماً مثلما هو حال العدم أمام الكينونة. لكنه، بحسب العبارة السعيدة لـ ر. هرتز (R.Hertz)، عَدَمُ فَعَالٍ يقوم بتبخيس وإفساد، بل تدمير الامتلاء الذي يتحدد إزاءه. من الملائم إذن أن تضمن حواجز منيعة العزل التام للمقدس عن الديني: إن كل احتكاك بينهما سيكون وبالاً عليهما. « ليس في مقدور هذين النوعين \_ يكتب دور كايم \_ الاقتراب من بعضهما البعض، والاحتفاظ في نفس الآن بطبيعتهما الخاصة». ومن ناحية أخرى، يُعدُّ كلاهما ضرورياً لتطور الحياة: فالأول هو بمثابة الوسط الذي تنبسط فيه، بينما يجسد الثاني المنبع الغني الذي يَخْلُقُها، يصونها، ويسهر على تجديدها.

### المقدس، منبع كل فعالية:

ينتظر المؤمن من المقدس، بالفعل، كل صنوف العون والنجاح. فالاحترام الذي يُكِنُّه له خميرته الرعب والثقة في نفس الوقت. ويعزو الآفات التي تهدده، ويكون ضحيتها، والخيرات التي تهفو نفسه إليها أو التي يستحقها، إلى بعض المبادئ التي يجتهد في تليينها أو إخضاعها وجعلها تحت طوعه. وكائنه ما كانت الكيفية التي يتخيل بها هذا الأصل الأسنى للنعمة أو للابتلاءات، سواء كان إلهاً كونياً واسع القدرة، كما هو الشأن بالنسبة للديانات التوحيدية، أو آلهة حامية للمدن، أو أرواحاً للموتى، أو قوة منتشرة وغير محددة، تَهَبُّ لكل موضوع الإجابة في أدائه لوظيفته،

فتجعل الزورق سريعاً، والسلاح فتاكاً، والطعام مُغذياً. وسواء تَحَيَّنَاهُ متطوراً أو بسيطاً، فإن الدين يقضي بالاعتراف بهذه القوة التي يجب على الإنسان أخذها بعين الاعتبار. فما من وعاء تنبجس فيه إلا وبدل له مقدساً، مُرعباً وثمانياً. وبالمقابل، ينظر إلى المفتقر إليها على أنه عديم الضرر لا محالة، لكنه أيضاً عاجز وغير جذاب. ليس بوسعنا سوى احتقار الدينوي فيما يتنعم المقدس بموهبة تُقَدِّرُهُ على الإبهار وشد الانتباه إليه. إنه يشكل في ذات الوقت مصدراً لأكبر إغراء، ومنبعاً لأعظم المخاطر؛ فهو مرعب يفترض الحذر، ومرغوب فيه يستدعي في آن الجسارة والإقدام.

وعليه، يمثل المقدس، في صورته الأصلية، أولاً وقبل كل شيء، طاقة خطيرة، عَصِيبة على الفهم، صعبة الاستعمال، عالية الفعالية. ويكمن المشكل الذي يصطدم به كل من قَرَّرَ التوسل بها، في الإمساك بها وحسن توظيفها لجلب مصالحه على الوجه الأكمل، مع الاحتياط من المخاطر الملازمة لقوة يصعب التحكم فيها. ومتى كان الهدف المنشود عظيماً، كان تدخلها ضرورياً، وتشغيلها بالغ الخطورة.

إنها لا تُرَوِّضُ، ولا تقبل الانحلال والتجزئ. تأبى الانقسام وتتسم أئى كانت بالتمام والكمال. فألوهية المسيح تحضر بصورة شاملة في ثنايا كل جزء دقيق من القربان المقدس، كما تملك أصغر قطعة من رفات القديسين سلطة، لا تقل عن تلك التي كان يتوفر عليها رفات سليم. على غير المتدين تحاشي إبداء الرغبة في الاستحواذ على هذه القوة بلا حذر، فالكافر متى لمست يده بيت القربان تصير يابسة وتؤول إلى الانهيار؛ إذ ليس في إمكان جسم غير مهياً تَحْمُلُ عملية نقل طاقة كهذه، لذا يتورم الجسم النجس، وتتصلب مفاصله، تنثني وتنكسر، ويتفسخ لحمه، ويموت على الفور جراء ذبوله أو اضطراباته.

من هنا يتم الحرص على عدم المَسِّ بشخص القائد، حينما يجري اعتباره مقدساً. وسنرى كيف يتم التخلص من الملابس التي ارتداها، والأواني التي أكل فيها، وبقايا طعامه، بإحراقها أو دفنها. لا أحد يجرؤ، باستثناء أبنائه الذين يشاركونه

القداسة، على جمع القبيرة أو العمامة التي سقطت من رأس قائد قبيلة «الكناك»<sup>3</sup> (Canaque)، فالجميع يخشون المرض أو الموت.

### وظائف الشعائر والممنوعات:

إن سريان عدوى المقدس يقوده، من جهة، إلى التدفق الفوري على الديني والمجازفة بتقويضه، والانتهاة إلى الضياع بلا فائدة تُرجى؛ ومن جهة ثانية، يجد الديني - الذي هو في حاجة دائمة للمقدس - نفسه مدفوعاً إلى الاستيلاء عليه بشراهة، فَيَهْدُدُ على هذا النحو بإتلافه أو القضاء المبرم على ذاته. من هنا فإن علاقتهما يجب أن تُضبط بصرامة، وهذه على وجه التحديد هي وظيفة الشعائر. بعضها يتمتع بخاصية إيجابية، تتجلى في تحويل طبيعة الديني أو المقدس، حسب حاجات المجتمع؛ وبعضها الآخر، بخاصية سلبية، تهدف، في مقابل ذلك، إلى الإبقاء على كل منهما داخل كيانه الخاص، مخافة دخولهما في احتكاك غير مباشر يُفضي بصورة تبادلية إلى ضياعهما معاً. تضم الأولى شعائر النذر، التي تُدخل إلى عالم المقدس كائناً أو شيئاً، وشعائر نزع الطابع القدسي، أو التوبة، التي تعيد، بالمقابل، شخصاً أو شيئاً طاهراً أو غير طاهر إلى العالم الديني. إنها تؤسس وتضمن الذهاب والإياب الضروريين بين هذين المجالين. وبخلاف ذلك، ترفع بينهما المُحَرَّمات حاجزاً لا غنى عنه، ينجح، عبر عزلهما، في إنقاذهما من الكارثة. لقد دأبنا على نعت هذه المحرمات بالاسم البولينيزي تابو (Tabou). « نطلق هذا اللفظ - يكتب دوريكاييم - على مجموعة الممنوعات الطقوسية التي تروم الوقاية من الأخطار الناجمة عن انتقال عدوى سحرية، بمنع كل اتصال بين شيء أو صنف من الأشياء، حيث يفترض إقامة مبدأ فوق طبيعي، أو أشياء أخرى ليس لها نفس الخاصية أو لا تتوفر عليها بنفس الدرجة». يظهر التابو كأمر قطعي سالب. ويتمثل نشاطه في المنع لا في التوجيه والإرشاد. وهو غير مُبرَّر بأي اعتبار ذي طبيعة أخلاقية. ولا يجوز خرقه لسبب واحد وبسيط، يكمن في تجسيده للقانون، وتمييزه بصورة

مطلقة بين الحلال والحرام. والغرض من وضعه هو الحفاظ على كمال العالم المنظم، والإبقاء على موفور الصحة الفيزيائية والأخلاقية للكائن الذي يفرغ الجهد في تأمله. إنه يحفظ هذا من الموت، ويمنع ذلك من التقهقر إلى الحالة السديمية والهبولية، الفاقدة للشكل والعطالة، التي كانت تُجسّدُ حالته الأصلية قبل تدخل الآلهة الخالقة أو الأبطال الأوائل الذين حملوا إليه النظام والقياس، الثبات والانتظام. ففي حالة الإباحة التي وسمت الزمن الأول، لم تكن هناك ممنوعات. وبسببها أسس الأسلاف التنظيم الجيد للكون، وضمنوا حسن اشتغاله. كما سطوروا بشكل نهائي مجمل العلاقات بين الكائنات والأشياء، وبين البشر والآلهة. وحددوا أنصبة المقدس والدنيوي، وعينوا الخطوط الفاصلة بين الحلال والحرام.

إن اللفظ المناقض لـ«تابو» بالبولينية هو «Noa» (حر). ويشير هذا اللفظ إلى كل ما يجوز فعله من دون أن يضع نظام العالم موضوع مساءلة، ومن غير أن يتسبب في الشرور والآفات، وإلى ما لا يتضمن أية عواقب وخيمة لا سبيل إلى صدها. وبالمقابل، فإن الفعل لا يدخل ضمن دائرة «التابو» إلا إذا ترافق إنجازها بإساءة تؤدي إلى اختلال هذا النظام الكوني، الذي هو في نفس الوقت نظام الطبيعة والمجتمع. ومن شأن أي خرق أو انتهاك أن يُربك النظام برمته، لتصبح الأرض مهددة بعدم طرح غلتها، والماشية بالعقم، والنجوم بالخروج عن مسارها، والمرض والموت بتدمير البلاد. فالمذنب لا يُعرّض شخصه فحسب للخطر، وإنما يطال الاضطراب الذي أحدثه في العالم محيطه أيضا، فينتشر بالتدريج، ويدمر الكون بأسره، ما لم يفقد الشر شيئا من حدّته أثناء زحفه، وما لم تُتخذ على الخصوص إجراءات يكون من شأن تطبيقها محاصرته أو محو أثره.

إجمالا، وفي ختام هذا الوصف التمهيدي المختصر، نشير إلى أن المجال الدنيوي يبرز كمجال للاستعمال المشترك، الذي لا تحتاج فيه الأعمال إلى أي احتياط بحيث تدخل ضمن هامش ضيق متروك في الغالب للإنسان ليُزاوِل فيه نشاطه

بلا قيد أو إكراه. أما عالم المقدس فيبدو، بخلاف ذلك، كعالم محفوف بالمخاطر أو بالمحظورات: لا يستطيع الفرد الاقتراب منه بدون أن يطلق العنان لقوى لا سلطان له عليها وأمامها يشعر بضعفه وعجزه عن المقاومة. ومع ذلك، تؤكد أنه بغير عونها، يكون محكوماً على كل طموح بالفشل. فهي أصل وسنخ كل نجاح، وقوة، وثروة. لكننا ينبغي أن نخشى، في حال التوسل بها، أن نصبح أول ضحاياها.

### نظام العالم:

هذه الوضعية الملتبسة للمقدس تحدد أساسا الكيفية التي يدرك بها من قبل الإنسان، وعليها يجب الاستناد في دراسة المقدس من وجهة نظر ذاتية. بيد أنه يتعين علاوة على ذلك البحث، موضوعيا، عما يُفضي إلى فرض قيود على الفرد تجعله يتصور نفسه مُلزماً باحترامها. وقد مضى معنا أن الغرض من هذه التحريمات هو المساهمة في حفظ النظام الكوني. والواقع أن اللفظ المستعمل للإشارة إلى انتهاكها يشق في الغالب عبر إضافة جزء سالب إلى اللفظ الذي يدل على القانون الكوني. على هذا النحو يُبرزُ العلاقة الوثيقة بين المفهومين. وفي مقابل اللفظ اللاتيني (fas) نجد اللفظ (nefas)، الذي يتضمن في معناه كل شيء يصيب بالأذى نظام العالم، أو يمس الشرعية الإلهية، فيجد نفسه محرّماً من قبلها. أما «التيميس»<sup>4</sup> (thémis) الإغريقي الذي يُؤمّن بالطريقة نفسها تنظيم الكون، فإنه أقل إشارة إلى المفهوم الأخلاقي للعدالة منه إلى الانتظام الضروري لحسن اشتغال الكون بحيث لا تُعدّ قسمته العادلة سوى مظهر أو نتيجة له. لقد وضعت المُحرّمات بفضل القاعدة أو «التيميس»، الذي لا يُؤسّر إلا على عدم توافق السلوك المُحرّم مع الأوامر المقدسة التي تجعل العالم منضبطاً بالقاعدة ومحكوماً بالاستقرار. وبالمثل، نجد أمام اللفظ (rta) الهند - إيراني، اللفظ (an-rta) الذي يشير إلى كل ما يخالف النظام الكوني. فحينما دعت «يامي»<sup>5</sup> (Yami) أخاها التوأم إلى انتهاك المحارم، رفض هذا الأخير مستندا إلى الشريعة القديمة: «كيف نرتكب اليوم فعلا حرصنا دوماً على اجتنابه؟



كيف نقوم بعمل هو في عداد (an-rta)، ونحن ما فتئنا نقول (rta) و [نعتقد به]؟». فحتى الآلهة يحرم عليها اغتصاب مراسيم الشرعية الكونية. عندما جعل «إندرا»<sup>6</sup> (Indra) نفسه مسؤولاً عن القتل – الضروري مع ذلك – لـ «فترتا» (Vitra)، الذي يتمتع بصفة «براهمان»<sup>7</sup> (Brahman)، فإن الانتهاك الذي يتحمل وزره يُجرده من كامل قوته: يجب عليه الفرار إلى أقاصي الأرض والاختباء داخل قصب في الوقت الذي يكون فيه الكون عرضة للكوارث. لأن «من يسلك وفق تعاليم rta يجد الطريق أمامه سالكا بلا أشواك». في حين أن من يزيغ عن الطريق القويم، ويحيد عن المعيار الأصلي، يتسبب في وقوع شرور غير محسوبة وبعيدة المدى. لقد كان «خشيار»<sup>8</sup> (Xerxés) الذي ألقى جسرا من البواخر في البوسفور متسبباً في هيجان الأمواج وراء هزيمة جيشه التي قادت إلى الكارثة. وفي الصين تنخسف الشمس أو القمر إذا ما تعدى الحاكم أو زوجته حقوقهما.

### مخاطر الخلط:

لامندوحة أن النظام الطبيعي امتداد للنظام الاجتماعي ومرآة له. فهما مترابطان؛ وما يُكدر صفو أحدهما يربك بالضرورة الآخر. إن جريمة القدرح في الذات الملكية تعادل فعلاً مضاداً للطبيعة، وتسيء بنفس الطريقة لحسن سير الكون. كذلك، يعتبر كل خلط عملية خطيرة تنزع إلى جلب الفوضى والاضطراب، وتندثر بالتشويش على مزايا كان من الواجب الإبقاء عليها منفصلة، إذا ما أردنا الاحتفاظ بفضائلها ومزاياها الخاصة. لذا، فإن معظم الممنوعات المعتمدة في المجتمعات المسماة بدائية هي في المقام الأول ممنوعات تطال آفة الخلط، كلما جرى التسليم بأن الاحتكاك المباشر أو غير المباشر، والحضور المتزامن داخل نفس المكان المغلق، يشكلان مُقدماً أنماطاً من الخلط، تصبح موضوع خشية عندما تميل مثلاً، إلى التقريب بين أشياء تبدو بموجب عدوى أو بحكم طبيعتها، منتمية إلى هذا الجنس أو ذاك. وعلى هذا النحو لا ينبغي وضع أدوات الرجل بقرب أدوات المرأة، تماماً كما يحرم الاحتفاظ

بمحاصيلها تحت سقف واحد. كذلك يجري التوجس من الخلط بين متعلقات فصول مختلفة. وهكذا نجد الاعتقاد راسخا عند الإسكيمو، بأنه لا يتعين على جلد فيل البحر، وهو حيوان شتوي، أن يلامس جلد الرنة (renne)، وهو حيوان صيفي، كما يمنع حصول أي احتكاك بينهما، حتى لو كان داخل معدة المستهلكين، والمتغيرات كثيرة لا سبيل إلى إحصائها، بوسع كل تعارض طبيعي، على غرار ذلك الذي نرصده في الأجناس أو الفصول، أن يسمح بميلاد قواعد قادرة على حفظ وحدة وسلامة المبادئ التي يُظهر تعارضها. تحدد التعارضات ذات الأصل الاجتماعي، مثلها في ذلك مثل تلك التي تحكم مختلف المجموعات التي تتألف منها القبيلة، الموانع التي تصدّ انتشار أي عدوى قاتلة. ومعلوم أن القبائل الأسترالية تنقسم إلى عشيرتين، هذا الوضع يفرض أن تُبنى منصة الإعدام التي يُعرض فيها جسم الميت حصريا بواسطة مواد خشبية تنتمي إلى عشيرته. وبالمقابل يستوجب اصطيد حيوان قادم من عشيرة معينة، التوصل بأسلحة تنتمي مادتها الخشبية إلى العشيرة الأخرى؛ ذلك لأن الفكر الديني لا يعتبر الخلط عملية كيميائية ذات نتائج محددة، مادية بصورة خالصة. إنه يرتبط بماهية الأجسام ذاتها. يربكها، يفسدها، ويُسرّب الدنس إلى داخلها، أي أنه يجسد بؤرة لانتشار العدوى، يجب تقويضها في الحال، بالتخلص منها أو عزلها. لا يخفى أن مزايا الأشياء مُعدية: يجري تبادلها، قلبها، والتوليف بينها؛ بل يتسبب بعضها لبعض في التلف، كلما سمح قربها المفرط بالتفاعل فيما بينها. فيلفي نظام العالم نفسه في وضعية المعتدى عليه. لذا يتطلب حفظه نظريا منع كل خلط قمين بتعريضه للخطر أو عدم إنجازهِ، عندما تملي الضرورة سلك هذه المناورة الدقيقة، إلا حينما تُتخذ الاحتياطات اللازمة للتخفيف من مفاعيله.

### طبيعة القربان:

من ناحية أخرى، يرغب الفرد في إنجاز مشاريعه، أو اكتساب الفضائل التي

تتيح له النجاح، واتقاء الشرور المحدقة به، أو العقاب المناسب لخطئه. إن المجتمع برمته - مدينة كان أو قبيلة - يجد نفسه أمام الحالة ذاتها: عندما يُحارب، يسعى إلى النصر ويخشى الهزيمة، وحينما ينعم بالازدهار، يأمل دوامه ويعمل على الحفاظ عليه، وبالمقابل ينشغل بتجنب الإفلاس الذي قد يلوح له مقدمه في الأفق القريب. نَعَمْ كثيرة تلك التي يتطلع الفرد أو الدولة إلى الحصول عليها من الآلهة، والقوى الشخصية وغير الشخصية التي يُفترض أن نظام العالم يخضع لها. ولا يتخيل السائل إذن، من أجل حَمْلها على تلبية مطالبه، شيئاً أفضل من المبادرة إلى منحها هبة، وقربانا، أي عبر نذره لشيء - بإدخاله إلى مجال المقدس - وهذا الشيء يوجد في حوزته، أو كان يملك حرية استعماله فتخلى عن حقه في ذلك. وهكذا فإن القوى المقدسة التي لا تستطيع رفض هذه الهدية الربوية تصبح مدينة، ومغولة اليد بموجب ما تلقت، ولكي لا تبقى أسيرة هذا الدَّين يتوجب عليها الاستجابة ومنح ما هو مطلوب منها: امتياز مادي، فضيلة، أو خفض عقوبة. وعلى هذا النحو يستعيد العالم نظامه وعافيته. بفضل القربان صار المؤمن دائماً، ينتظر من القوى التي يقدسها أن توفي ما عليها من دَين عبر تحقيق آماله و أمانيه. وبهذا الصنيع، تُقدِّم له المقابل الذي يُحْتَمه كل عمل أحادي الجانب، وتعيد التوازن الذي اختل لفائدة سخاء غير منزه عن الغرض.

### زهد وَهَبَة:

هذا هو المبدأ الذي ينضبط به الزهد والهبة في نفس الآن، ومبدأ كل فعل من خلاله نَحْرُمُ أنفسنا تلقائياً من لذة أو خير ما. والواقع أن الزهد هو عينه الطريق الموصلة إلى القوة؛ يظل الفرد يارادته دون مستوى إمكاناته الشرعية أو المادية، متلافياً الأفعال التي تبيحها له القوانين أو القوى، فيبقى بذلك على هامش يزداد اتساعاً بين ما يستطيع فعله، كحق أو كواقع، والأشياء التي يكتفي ويقنع بها: وهكذا يجد، في العالم الأسطوري، أن كل ما زهد فيه قد تحول إلى رصيد في حسابه،

يضمن له هامشا مماثلا من الإمكانيات الخارقة. لقد اكتسب في الممنوع و المُحرّم عالما ماورائيا يختص به وحده، ويوافق على وجه التحقيق و التدقيق ما يوجد دون إمكانياته التي تخلى عنها في الممكن والمباح. غير أن هذا التبادل يُشكل في العمق أكثر الاستثمارات فائدة، لأنه يظفر في المقدس بنظير ما احتقره في الديني. علاوة على أن الزاهد الذي يرفع من قدراته كلما خَفَضَ من منسوب مُتَعه، يتعد عن البشر، ويقرب من الآلهة التي يغدو بسرعة منافسا لها. الآن يختل التوازن لمصلحته؛ وتخشى هي من ضرورة أداء فاتورة كل هذا الزهد، فتهرع على الفور إلى الإيقاع به في شبك جميع الإغواءات الممكنة، بُغية تجريده من قوة قادرة على أن توازي قوتها. والملاحظ أن هذه التيمة تحضر بوفرة في كثير من الميثولوجيات.

و بالمثل، تكشف الأضحية الموهوبة، التي تُبادُ من حيث هي قربان، تقييدا نرضه على أنفسنا طمعا في الظفر بسخاء ما. ونظير هذا يحصل عندما نوقع على أنفسنا عذابا يكون بمثابة الدفع المُقدّم للحصول على بهجة نتزع إليها. كذلك يفعل هنود «البطون الكبيرة»، إذ يُنكّلون بأنفسهم ليلة حملاتهم العسكرية، فيما يستحم «الهوباس»<sup>9</sup> (Hupas) في أنهار صاقعة أملا في أن تُكَلِّلَ مشاريعهم بالنجاح؛ وفي إحدى قبائل غينيا الجديدة يُحارب عقم النساء بإحداث قطع في الجزء العلوي من أفخاذهن؛ أما في قبائل «الأرونتا» (Arunta) و«الفرامونغا»<sup>10</sup> (Warramunga) فإن الرجال والنساء يتوسلون بعصي ملتبهة يجرحون بها أذرعهم، بغرض أن يصبحوا ماهرين في إشعال النار؛ وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن العادة جارية باعتماد الختان وعملية شرم القضيب من الأسفل (subincision) بغية تأهيل الفرد للزواج، وتنمية طاقته التناسلية، ومنحه قوة توالدية أو ببساطة تحصين أعضائه التناسلية من المخاطر الغريبة التي تنطوي عليها العلاقة الزوجية. هكذا، في كل مرة، وعلى شكل ألم مخصوص يجري دفع ثمن الامتياز الذي نروم تحصيله. وبالموازاة مع ذلك، يتم التحرر من شر نخشى حدوثه، عبر تخليّن بطيب خاطر عن خير من الخيرات. فقد ألقى «بوليقراطوس» (Polycrate) خاتمته في البحر تجنبنا لسوء الطالع الذي يخاف من

أن تجلبه له سعادته المفرطة. كما أن موت قريب يحمل في ذاته تهديداً لحياة كل واحد من أقربائه؛ إذ يمكن لدنس الموت أن يصيبهم بدورهم ويقضي على حياتهم. وغالبا ما يتفادون الموت بتر بعض أعضائهم، عادة بقطع الأصبع: وبهذا يَهْبُون الجزء حفاظا على الكل.

### لعبة البواكير:

الظاهر أن نذر البواكير يستند إلى نفس الآلية السيكولوجية، غير أنه، هذه المرة، يتم التخلي عن الجزء لا من أجل الحفاظ على الكل، وإنما من أجل اكتسابه والحصول عليه. والحق أن ما من بداية إلا وتطرح مشكلا دقيقا. ومن الجلي إخلالها بتوازن ما، وإدخالها لعنصر جديد ينبغي إدماجه داخل نظام العالم بأقل إزعاج ممكن. لذا فإن الحد الأول من كل سلسلة يجري اعتباره خطيرا. فلا أحد يجروء على استخدامه لأجل استعمال عادي. إنه حق إلهي: يُنذَر لمجرد كونه الأول، ولأنه يدشن انتظاما جديدا للأشياء، وبوصفه سببا في حصول تَعْيُرٍ ما. وحين تنضج الغلَّةُ، يتوجب إذن تحريرها قبل عرضها للاستهلاك.

كذلك تُخصص للآلهة البواكير وأجمل فواكه البساتين، وبواكير وكبريات خضر المُبَقَّلَات. كما يقع على الأفراد المتمتعين بقداسة خاصة امتصاص القوة الرهيبة الموجودة في كل جديد. وعلى هذا النحو، يُبادر الملك أو الكاهن، في قبائل الزولو، إلى تذوق المنتوجات الجديدة؛ ثم يمنح قطعة منها لكل واحد من مساعديه الذين يحق لهم بعد ذلك التوفر عليها كما يحلو لهم طيلة السنة. ومعلوم أن اليهود لا يجنون لأنفسهم ثمار الأشجار التي غرسوها إلا ابتداء من العام الخامس. إذ يعتبرون ثمار السنوات الثلاث الأولى غير طاهرة، فيما يندرون لله تلك التي تُقطف في السنة الرابعة. كذلك يتم نذر أول مواليد الحيوانات المنزلية: والإنسان نفسه لا يفلت من هذه القاعدة؛ فهو ملزم في معظم الأحيان بأداء شعيرة التضحية، كما فعل

إبراهيم مع ابنه إسماعيل، أو على الأقل أن يكرس للشعيرة الإلهية ولده الأول. يعتبر هذا الأخير نصيب الآلهة؛ فعبر النذر يُكفّر عن الخلل الذي أصاب العالم بسبب مجيئه إليه. وهو في ذات الوقت يفدي إخوته، ويضمن لهم وجوداً حراً، دنيوياً، يسمح لهم بالانتساب لآبائهم دون أي تحفظ.

ما من تغير في الحالة إلا ويتضمن بنفس الكيفية قربان بواكير مُوجّه نحو امتصاص الخطر: قبل الزواج، تمنح الفتاة البكر للنهر أو للاله البكاره الرمزية لعذريتها. وعند الشعوب التي تُفَضُّ فيها بكارة المرأة قبل الزواج بوقت طويل، تبتعد الزوجة الجديدة أثناء عرسها عن كل علاقة جنسية مع أي شخص آخر غير زوجها، حتى تحفظ هذا الأخير من الخطر الذي يمثله حُضن امرأة متزوجة، أي ذلك الكائن الذي يفتح وضعاً اجتماعياً جديداً ونمط وجود لا يقل عنها جدة.

تنطوي حيازة منزل حديث التشييد على مخاطر مماثلة. وعادة ما تُحرّر رقصة مُقدّمي القرابين أرض المسكن. وأحياناً يقوم الساحر بإخراج نَفْس مَنْ سيدخل المنزل الجديد، ويضعها في مكان آمن. بعد ذلك يعيدها إلى صاحبها عندما يجتاز الحد المرعب، غير المنتهك لحد الآن، الذي ترسمه عتبة المسكن الجديد. نعرف حق المعرفة الحكاية المشهورة التي يشارك بحسبها الشيطان في بناء كنيسة أو قنطرة مقابل استحواذه على نفس أول المنخرطين في عملية البناء. لا سبيل إلى إحصاء الأمثلة التي تتعدد إلى ما لا نهاية، وهي تُجمع على إبراز الخطر المرتبط بكل بداية مطلقة، وضرورة تقديم نذر جزئي بواسطته يجري تضمين نظام الأشياء العنصر الذي يدخله.

### دراسة المقدس:

مع ذلك، لا يمكن للأمر أن يتعلق أبداً إلا بما ينبغي الأخذ به في غياب لما هو أفضل. فالشفاء من أي جرح يترك وراءه أثراً لا محالة. واستعادة النظام بعد الإخلال

به لا تعيد له استقراره الأصلي، ولا بكارته الأولى. فالحياة لا تستمر إلا بفضل التمزقات التي يتعرض لها السكون، وعبر تجديد متواصل ومُنهك للجسم، المضطر من أجل الاستمرار إلى استيعاب دائم لمواد جديدة. ليس في مقدور طقوس التكفير عن الذنب، والطرْد الاحتفالي لكل مظاهر الرّجس، ومختلف الممارسات التطهيرية والتنظيفية التي ترمي إلى إصلاح نظام العالم المُتعرض دوما للهجمات، أن تعيد لفضيلة براءتها الأولى، كما أن العافية المستعادة والحذرة لن تكون أبدا هي الصحة المظفرة اللامبالية التي لم يعرف المرض بَعْدُ طريقه إليها. فمن المستحيل «إعادة وضع الحَبّة الموجودة تحت القشرة في قلب السنبلّة»، كما أنه من المتعذر «تَمَكُّن البرعم الثقيل والضلع الشاب من خرق القشرة وإعادة الانتشار بها».

لا مناص من إنقاذ الطبيعة والمجتمع من شيخوخة لا مفر منها ستؤدي إلى خرابهما معا ما لم نتخذ الاحتياطات الضرورية التي من شأنها تشبيهما وإعادة خلقهما بصورة دورية. يفتح هذا الإلزام فصلا جديدا في دراسة المقدس، فلن يكفي عرض كيفية اشتغال نظام العالم، وإبراز ما إذا كانت قوى المقدس خَيْرَة أم شريرة، بحسب مساهمتهما في تماسكه أو في تسريع وثيرة تفسخه وانحلاله؛ بل تجب، إضافة إلى ذلك، الإشارة إلى الطريقة التي يعمل بها الإنسان من أجل الحفاظ عليه والمجهودات التي يبذلها بغرض تجديده، متى لاحظ تفككه وقرب انهياره. إلا أنه قبل البحث عن السبل الكفيلة بتمكين المجتمع من أداء هذه المهمة المزدوجة، وقبل الشروع في الحديث عن رسم خطاطة إجمالية خاصة بسوسولوجيا المقدس، ربما يكون علينا استخراج بعض الثوابت في الموقف الذي يتبناه الإنسان إزاءه، من خلال تَمَثُّله للقوى العجيبة التي يرضخ لها، والتي يحترس منها ويسعى في آن واحد إلى السيطرة عليها. من دون شك، وعلى اعتبار أن كل فرد يُعَدُّ عضواً في مجتمع، فإن ظاهرة المقدس لا تأخذ دلالتها الحقيقية إلا على مستوى هذا الأخير؛ بيد أنه يُبهر أيضا النفس الفردية وقيم بداخلها. فهي تشعر بقيمة المقدس بدون وسيط فتتكيف مباشرة مع حاجياته.

## الهوامش:

- 1- داكونا: شعب هندي يقطن أمريكا اللاتينية.(المترجم).
- 2- الماوري: سكان بولينيزيون يعيشون منذ قرون عديدة في نيوزيلندا.(المترجم).
- 3- الكناك: جماعة عرقية تعيش في إحدى جزر كاليدونيا الجديدة.(المترجم).
- 4- التيميس: يشير في الأسطورة اليونانية إلى إلهة العدالة والقانون(المترجم).
- 5- يامي: تزعم المثلوجيا الهندية أنها وشقيقها التوأم ياما أول مخلوقين بشريين. وفي بعض التراث الهندي المقدسة نجد أن يامي أغرته بأن يعيش معها عيش الأزواج ابتغاء إنشاء الجنس البشري. ويظهر ياما في بعض الأساطير المتأخرة ديانا يحاكم الموتى فيدخل الأبرار إلى الجنة ويلقي بالأشرار إلى النار.(المترجم).
- 6- إندرا: إله فيدي(نسبة إلى أحد الكتب الهندوسية الدينية)، وهو يُقدم كسيد مطلق للأعطار والفصول(المترجم).
- 7- براهمان: يدل هذا اللفظ في الديانة الهندوسية على الروح الكونية التي تحرك العالم وتحكم استقراره وبه يبلغ المتأمل الانعتاق من دورة الحياة والموت. ويراهما مجرد تجسيد له. كما يُستعمل للدلالة على أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس (المترجم).
- 8- خشايار: خشايار الأول(خشايار شاه بالفارسية) ملك فارسي، رغم كونه أصغر إخوته تم اختياره خلفا لوالده داريوش الأول، حكم بين 485 و 465 ق. م، وهو الملك الرابع في سلالة الأخمينيين ببلاد فارس. حاول غزو اليونان وفشل بعد تعرض جيشه لخسارة كبرى في العدد، وتأخر في التحرك، رغم فوزه في الأخير في معركة ترموبيل (المترجم).
- 9- الهوباس: جماعة صغيرة ومنعزلة تعيش قرب نهر الترينيتي شمال شرق كاليفورنيا. يسود عند أفرادها الاعتقاد بأنهم نبعا من الأرض التي يسكنونها.(المترجم).
- 10- الأرونتا والفرامونغا: قبائل توجد في أستراليا الوسطى، وتتألف من السكان الأصليين لهذه المنطقة.(المترجم).